[العقيدة والشريعة]

عبد العزيز بن ناصر الجليل

اسم الله (القيوم)

وآثاره في الأحداث المعاصرة

نظـراً لضخامة الحـوادث في زماننا اليـوم وتسـارعها ومفاجآتهـا حتـى أصبح المرء يتوقع في كل يوم يستيقظ فيه حوادث ومفاجآت جديدة، تنسـيه مـا حـدث بالأمـس، ونظـراً لانصـراف كثير من الناس عن ربط هذه الأحداث بتدبير الله عز وجل وقيوميته وحكمته ورحمته ولطفه إلى ربطها بتفسـيرات ماديـة وتحليلات سياسـية متخبطة، فنظراً لذلك كله رأيت أن أنبه نفسـي وإخـواني المسـلمين إلى أن نرتبط بالله عـز وجـل وأن نتعـرف علـى أسـمائه الحسـنى وصفاته العلـى وآثارها في النفوس والآفـاق والأحـداث والنوازل، فما أشـرفه مـن علم وما أسـعد من وفقه الله إلى هذا العلم بمعرفة الحق والهداية إليه والانقياد له.

وأستفتح هذه الكتابة بآيات شريفات من سورة يونس، تحتاج منا إلى وقفة طويلة لنتأمل فيها ونتدبرها ونحاكم إليها ونفسر بها كل ما يقدر الله عز وجل في ملكه العظيم ويدبره من خلق وأمر.

يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ

كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣١ - ٣٦].

إن هذه الآيات الكريمات من الوضوح والجلاء بحيث لا تحتاج إلى مزيد من شرح وبيان، ولقد ورد ذكر كلمة «الحق» في هذه الآيات خمس مرات في مقابل الظن والتخبط والتيه في شعاب الضلال.

كما جاء في صدر هذه الآيات بعض الصفات والأفعال التي اختص الله سبحانه بها دون خلقه والتي اقتضت أن يكون له سبحانه الملك كله والحكم كله والتدبير كله وله الحمد كله على ذلك كله.

إن هذه المسلمات والمحكمات قد غابت اليوم عن كثير من المسلمين في زحمة الأحداث والمفاجآت وما يصاحبها من تلبيس وتضليل

يمارســه شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ليصرفوا الأمة عن مصدر نجاتها وهدايتها.

حيث نرى ربط هذه الأحداث بأسـباب مادية وتحليلات متخبطة، وأخطر ما فيها تضخيم قدرات العدو وقوته وهيمنته وإيهام الناس بأنه المتحكم في الأحداث والمتصرف فيها وخلعوا عليه بعض صفات رب العالمين فاطر السماوات والأرض من القدرة والقوة والتدبير وأن لا طاقة لأحد بمواجهته ومحاسبته بل لا بد من الرضا بالواقع والاستسـلام له وهذا ما يريده منا أعداء الأمة من شياطين الأنس والجن، ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

إننا بحاجة - بل ضرورة عظيمة - إلى معرفة ربنا بأسمائه الحسـنى وصفاته العلا

وما تثمره في قلب المسلم وفي واقع المسلمين من ثمار طيبة يانعة وموازيـــن ثابتة عادلة منضبطة لكل ما يحدث وينزل بالمسلمين من أحداث ونوازل. ومن هذه الأسماء الحسنى:

اسم الله القيوم:

ورد هذا الاسم الكريم في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع مقترناً باسمه سبحانه «الحي»:

الأول: في قولــه تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْـحَيُّ الْقَيُّـومُ﴾ [البقـرة: ٢٥٥]، الثاني: في قوله تعــالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُـوَ الْـحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْـحَقِّ مُصَدِّقًا لِّـمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنـزَلَ التَّـوْرَاةَ وَالإِنجِيـلَ﴾ [آل عمـران: ٢، ٣]، الثالث: في قولــه تعالى: ﴿وَعَنَـتِ الْوُجُوهُ لِلْـحَيِّ الْقَيُّـومِ﴾ [طـه: ١١١]، وهذا الاسم الكريم من أسماء الله الحسنى التي تخصه سبحانه لفظاً ومعنى، فلا يجوز تسمية أحد من خلقه بهذا

الاســم، وذلك لما يتضمنه من المعاني والآثار التي ينفرد بها الله سبحانه عن خلقه.

معنى «القيوم»:

ذكر الإمام ابن القيم رحمــه الله تعالى معنى هذا الاســم العظيم في أكثر من موطن من كتبه. ومن ذلك قوله: «معنى اســمه القيوم: هو الذي قام بنفسه فلم يحتج إلى أحد، وقام كل شيء به فكل ما ســواه محتاج

إليــه بالذات»(١)، وقال في موطن آخر: «وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفســه لا يحتــاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه. وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته»(٢).

وقال في موطن آخر: «وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم على كل شيء وقائم على كل نفس، وأنه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيتــه وقهره وإيصال جزاء المحســن إليه وجزاء المسيء إليه، وأنه بكمال قيوميته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القســط ويرفعه ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل لا تأخذه ســنة

---

(١) مدارج السالكين ١١١/٢.

(٢) بدائع الفوائد ٤١٠/٢.

ولا نوم ولا يضل ولا ينسى، وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية، وأعلى منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء، وهو شهادة أن لا إله إلا هو وأن إلهية ما سواه باطل ومحال كما أن ربوبية ما سواه كذلك فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد ويصلى له ويسجد ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة والمألوه وحده وله الحكم وحده فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال، وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها، وكل غنى لغيره فقر وضلال، وكل عز بغيره ذل وصغار، وكل تكثر بغيره قلة وفاقه، فكما استحال أن يكون للخلق رب غيره فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره»(٣).

وقال في نونيته المشهورة:

---

(٣) طريق الهجرتين ص ٧٩،٨٠.

هذا ومنأوصـــــافه القيوم والـ

قيوم في أوصـــــــــافه أمـــران

***

إحـــداهما القيوم قام بنفســـــه

والكـــــــون قام به هما الأمــران

***

فالأول اســـــتغناؤه عـــن غـيره

والفقـــــــــر من كل إليه الـثاني

***

والوصف بالقيوم ذو شأن عظيم

هكذا موصوفه أيضاً عظيم الشان(٤)

***

(٤) الكافية الشافية ص٢٤٨.

وعنـــد قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] يقول الشوكاني رحمـــه الله تعالى: «القائم الحفيظ والمتولي للأمور. وأراد سبحانه نفسه فإنه المتولي لأمور خلقه، المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كل نفس»(٥).

هذه بعض معاني اسمه سبحانه «القيوم»، والتي فيها البلسم الشافي للقلوب والمعين في التفســير الصحيح للأحداث والميزان القسط للمواقف والأحكام والطمأنينة والســكينة التي يسكبها في قلوب المؤمنين العارفين.

ويمكن زيــادة البيان حول هذه المعاني في الأمور التالية:

---

(٥) فتح القدير ٣/١٢٠.

الأمر الأول:

إن تدبر معاني أسـماء الله عز وجل ومنها اسمه سبحانه «القيوم» يزيد من يقين المسلم واطمئنانـه على أن كل مـا يجري في ملكوت الله عز وجل علويه وسفليه من خلق أو أمر إنما يقع بعلم الله وإرادته وإذنه، فهو المقدر له الخالق لجميع الخلق وأفعالهم، وأن كل ما يقدره سبحانه ويخلقه ويوجده ناشئ عن علمه وحكمته سـبحانه وقهره وعزته وعدله ولطفه ورحمته، والعارفون لربهم سـبحانه المدركون لهذه المعاني والمسلمات هم الذين يعيشـون في طمأنينة وحسن ظن بالله تعالى في كل ما يقدره سبحانه، ويوقنون أن أقضيته قد وقعت في مواقعها التي ينبغي أن تقع فيهـا، علم الحكمة منها من علم وجهلها من جهل، ومثل هذا الشعور يجعل المؤمن يتلقى أقضية ربـه بطمأنينة غير متفاجئ أو

مستغرب منها، لعلمه أن الخلق والأمر له وهو مقتضى أسمائه الحسنى وسننه العادلة المطردة التي لا تتبدل.

ولا يعني هذا الرضا الاستسلام لأقدار الله عز وجل الكونية التي يمكن مدافعتها، وإنما الواجب أن ندافع أقدار الله بأقدار الله، فكما ندافع قدر الجوع بالأكل، والمرض بالتداوي، كذلك ندافع كل نازلة كونية بقدر آخر من أقدار الله ندافعها به إن أمكن ذلك، وذلك بالقيام بالأسباب الدافعة لها، فيدفع مثلاً قدر تسلط الأعداء وغزوهم العسكري أو العقدي أو السلوكي بقدر آخر أمرنا الله عز وجل به، وهو مدافعة ذلك كله بجهاد الدفع، إن كان عسكرياً فبالسنان، وإن كان فكرياً فبالحجة والبيان، وإن كان سلوكياً فبالتربية والتحصين والاحتساب.

الأمر الثاني:

إذا استقر في حس المؤمن أن كل ما يجري في السماوات والأرض من قضاء الله وقدره إنما هو بعلم الله عز وجل وإذنه فيه وخلقه وقهره وعزته ولو شاء الله لما كان ووجد، وأن الخلق جميعهم تحت قهره وعزته وقوته نواصيهم بيده لا يستطيعون فعل أي شيء إلا بإذنه سبحانه، إذا استقر هذا في قلب المؤمن فإنه حينئذ يغيب في شهود قيوميته سبحانه وقهره وعزته عن شهود أفعال العباد وتدبيرهم والخوف منهم أو رجائهم أو ابتغاء مرضاتهم وتقديم محابهم على محاب الله عز وجل. فيغيب في تدبير الله عز وجل وعزته وقهره وشهود حكمته ولطفه عن شهود تدبير العباد وقوتهم فلا يراهم شيئاً، وإن كان مأموراً بأن يحذرهم ويأخذ بالأسباب التي تبطل باطلهم وتدفع صيالهم،

فيغيــب في إرادة الله عــز وجل وتدبيره عن إرادة غيره وتدبــيره، وبمحبته عن محبة من سواه، وبخوفه عن خوف من سواه، وبرجائه والتوكل عليه عن رجاء من سواه، فلله كم تثمر هذه المشــاهد في قلب المؤمن من المحبة لله ســبحانه وتجريد الخوف والرجاء والإخلاص له والنظر إلى المخاليق الضعاف مهما بلغوا من القوة والبطش على أنهم في قبضــة الله عز وجل ونواصيهم بيده ولا يســتطيعون تدبير أمر أو فعل شيء إلا بإذنه وحكمته ولطفه بعباده المؤمنين، قال الله عز وجل عن نبيه هود عليه السلام حينما هدده قومه قوم عاد الشــداد: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٥، ٥٦].

كم نحن في حاجة لإحياء هذا البعد وهذه

المعاني في نفوسنا ونفوس المسلمين حتي يضعوا الأمور في مواضعها الصحيحة ويزنوها بميزان الله عز وجل القسطاس المستقيم، وذلك بأن يغيب في تدبير الله وإرادته ومحبته والخوف منــه ورجائه عــن تدبير وإرادة ومحبة من ســواه وعن الخوف مما سواه، وهذه المعاني هي التي عبر عنها ابن القيم رحمه الله تعالى بالفنــاء المحمود، حيث ذكر في «باب الفناء» في مدارج السالكين نوعين من الفناء:

١. فنــاء الملاحدة والزنادقة من غلاة الصوفية الذين انتهى بهم إلى وحدة الوجود والاتحــاد وأنه ليس ثمة خالق ومخلوق وأن وجود جميع الموجودات هو عين وجود الله تعالى.

٢. الفناء المحمود فناء عباد الله المخلصين من الرسل وأتباعهم، وهو فناء المؤمن في إرادة الله عز وجل والخوف منه

ورجائه عن إرادة ما سـواه أو الخوف والرجاء لمن سواه، هذا وإن كانت كلمة «الفناء» عبارة ومصطلح صوفي إلا إن ابن القيم رحمه اللـه تعالى فصل فيه وذكـر الجانب المحمود منه فقال: «وأما أهل التوحيد والاستقامة: فيشـيرون بالفناء إلى أمرين، أحدهما أرفع من الآخر.

الأمر الأول: الفناء في شـهود الربوبية والقيومية، فيشهد تفرد الرب تعالى بالقيومية والتدبـير، والخلق والرزق، والعطاء والمنع، والضر والنفع، وأن جميع الموجودات منفعلة لا فاعلة، وما له منها فعل فهو منفعل في فعله، محل محض لجريان أحكام الربوبية عليه، لا يملك شيئاً منها لنفسه ولا لغيره، فلا يملـك ضراً ولا نفعاً، فإذا تحقـق العبد بهذا المشهد؛ خمدت منه الخواطر والإرادات، نظراً

إلى القيوم الذي بيده تدبير الأمور، وشخوصاً منه إلى مشـيئته وحكمتـه فهو ناظر منه به إليه، فانٍ بشـهوده عن شهود ما سواه، ومع هذا فهو ساع في طلب الوصول إليه، قائماً بالواجبات والنوافل».

الأمر الثاني : الفناء في مشـهد الإلهية، وحقيقته الفناء «عن إرادة ما سـوى الله ومحبتـه، والإنابـة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجائه، فيفنى بحبـه عن حب ما سـواه، وبخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه، وحقيقة هذا الفناء إفراد الرب سبحانه بالمحبة، والخوف والرجاء، والتعظيم

والإجلال»(٦).

والمقصود أن من عرف ربه سبحانه باسمه الرب العزيز الرحيم الحي القيوم الحكيم العليم لم يلتفت إلى غيره ولم يبق فيه إلا الحي القيوم المدبر الذي لا يوجد شيء ولا تنزل نازلة إلا بإذنه وحكمته فله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد ولا يحدث الخلق شيئاً إلا بإذنه، وإذا استقرت هذه المعاني والأعمال في قلب المؤمن غاب خوف المخلوق عنه واستولى الخوف من الله وحده وغاب التعلق بالأسباب وبالمخاليق الضعاف وتمكن التوكل على الله وحده في القلب مع أخذه للأسباب تعبداً لله عز وجل الذي هو مسبب الأسباب.

إن غياب هذه المعاني والأعمال القلبية عن قلوب كثير من الناس وهم يتعرضون

---

(٦) مدارج السالكين ٣٢٥/٤ ط دار طيبة.

اليوم للأحداث والنوازل المتسارعة والمكر الكبار من أعدائهم هو الذي يؤدي بهم إلى الخوف من الخلق الضعفاء أو التعلق بهم ورجاء ثوابهم والخوف من عقابهم، لأنه قد اضطربت موازينهم ومواقفهم وأحكامهم وسيطرت عليها التفسيرات المادية والتحليلات السياسية المقطوعة عن الله عز وجل وقيوميته وحكمته وعزته ورحمته، فلا تسأل بعد ذلك عن الضياع والحيرة والتخبط والاضطراب، قال الله عز وجل: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

الأمر الثالث:

مع ظهور آثار قيوميته سـبحانه لكل شيء من المخلوقات جامدهـا ومتحركها، فاجرها وتقيها، إلا إن لآثار قيوميته سبحانه بأوليائه وبمن أحبه شـأناً آخر وطعماً خاصاً يظهر في حفظـه ولطفه ورعايته بعباده المتقين، وهذا يقتضي محبة الله عز وجل المحبة التامة والركون إليه والتعلق به وحده والسكون إليـه والرضا بتدبيره.. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «فإنه سـبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها فكيـف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه وآثره على ما سواه، ورضي به من دون الناس حبيباً ورباً ووكيلاً وناصراً ومعيناً وهادياً؟ فلو كشـف الغطاء عن ألطافه وبره وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم لذاب قلبه حباً له وشـوقاً إليه ولتقطع شكراً

له، ولكن حجب القلوب عن مشـاهدة ذلك إخلادها إلى عالم الشهوات والتعلق بالأسباب، فصـدت عن كمال نعيمها، وذلك بتقدير العزيز العليم، وإلا فـأي قلب يذوق حلاوة معرفة الله ومحبته ثم يركن إلى غيره ويسكن إلى ما سواه؟ هذا ما لا يكون أبداً»(٧).

اللهم يا من لك الملك كله ولك الحمد كله ولك الثناء كله سـبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسـك، نسـألك حبك وحب من يحبك وحـب العمل الذي يقربنا إلى حبك، اللهم املأ قلوبنا من معرفتك ومحبتك وتعظيمك وخشيتك ورجائك، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين وثبتنـا على هداك حتى نلقـاك. والحمد لله رب العالمين.

---

(٧) طريق الهجرتين ١٨٠/١ ط دار السلفية (مصر).